

الدبلوماسية الفلسطينية .. انجازات وانحسارات

نبيل الرملاوي*

مرحلة البدايات

عندما نتحدث عن تجربة عملية في العمل الدبلوماسي يكون الحديث بالتأكيد عن مرحلة مجتزة، ومرتبطة إما بزمان معين أو بتجربة شخصية محددة. وهنا في هذا المقام أعتزف بأنني سمحت لنفسني أن أتحدث عن بعض العموميات ذات الطابع المشترك بين عدد من الدبلوماسيين إن لم يكن بين الدبلوماسيين الفلسطينيين كلهم، نظرا لطبيعة ظروف التعيين الواحدة والمشاركة في مرحلة البدايات، والطبيعة الواحدة المشتركة للدبلوماسيين أنفسهم الذين تم تعيينهم في تلك المرحلة.

وعندما نقول تجربة مجتزة، إنما نعني ما يتعلق منها بالتجربة الشخصية وما تضمنته هذه التجربة من استمرار لتجربة سابقة، وما تشكله بحد ذاتها من واقع يهد لتجربة قادمة. فهي لا تمثل الدبلوماسية الفلسطينية إلا من منظور جزئي لأنها تشكل مرحلة من مراحل تاريخية من البدايات إلى المستقبل الممتد للدولة ووجودها.

تجدر الإشارة في البداية إلى أن الواقع المباشر، وقد يكون الأهم الذي واجه الدبلوماسي الفلسطيني في مرحلة البدايات، هو أن الدبلوماسي الفلسطيني قد بدأ عمله في هذا الحقل كممثل لحركة تحرر وطني هي منظمة التحرير الفلسطينية، وكان من طبيعة تلك المرحلة أن يعطي الأولوية في عمله إلى الكفاح ومقاومة العدو بكل الوسائل ليستقطب التأييد الدولي لكفاح كشعبه، ودعم حقوقه الوطنية على المستويات الدولية المختلفة إلى جانب التركيز على التعريف بهذه الحقوق، وكان عليه بسبب ذلك أن ينجرف إلى العمل الدبلوماسي كدبلوماسي الدول، لأنه لا يمثل دولة، بل يمثل حركة تحرر وطني، ما يفرض عليه أن يعطي الأولوية في عمله إلى إبراز الكفاح المسلح الذي يخوضه الشعب الفلسطيني،

* كاتب ودبلوماسي فلسطيني.

والتضحيات الجسام التي يقدمها من أجل استعادة حقوقه الوطنية في أرضه، ومقارعة العدو الصهيوني الذي اغتصب أرض فلسطين منذ عام ١٩٤٨. ولكن في نفس الوقت هو دبلوماسي أمام العالم وفي نطاق عمله مع الدولة المتلقية والسلك الدبلوماسي فيها. وكان عليه في هذه الحالة أن يوفق بين الثائر الممثل لشعب ما زال يقاوم الاحتلال من أجل أن يتحرر ويمارس حقه في تقرير مصيره بحرية، ويقدم التضحيات والشهداء، وبين واقعه الوظيفي كدبلوماسي وما يترتب على ذلك من ضرورة إتقان فن الدبلوماسية والالتزام بقوانينها وأعرافها التي تتعارض في كثير من الأحيان مع سلوك الثائر المقاوم للاحتلال والسيطرة الأجنبية، وذلك ممارسة يومية وبوتيرة لا ترحم، ولاسيما أن الخصم المقابل للدبلوماسي الفلسطيني في المحافل الدولية كان وما زال هو الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن تكون إسرائيل. كان هذا هو التحدي الأكبر والأخطر في مرحلة بدايات العمل الدبلوماسي الفلسطيني. وقد استمر هذا التحدي عند بعض السفراء حتى يومنا هذا، وقد يكونوا قد بلغوا درجة الإتقان النسبي للعمل الدبلوماسي التقليدي إلا أنهم وبحكم انتمائهم النضالي العتيق والمغروس في كل وعيهم ووجدانهم وفكرهم قد تمكنوا من المحافظة على الأصل وزاوجوا بين الأصل والحداثة الدبلوماسية بقدر المستطاع رغم صعوبة وحساسية هذه الحالة.

الدبلوماسية الفلسطينية

الدائرة السياسية ل: م. ت. ف. هي المرجعية للدبلوماسية الفلسطينية

كان من الطبيعي أن يبدأ العمل الدبلوماسي الفلسطيني منذ تأسيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية، بعد انعقاد الدورة الأولى للمجلس الوطني الفلسطيني سنة ١٩٦٤ في القدس. حيث تولى رئاسة الدائرة السياسية آنذاك السيد نمر المصري وكان هو أول رئيس للدائرة السياسية التي بدأت بإيفاد ممثلين للمنظمة إلى عدد من الدول العربية كخطوة أولى في هذا المجال من العمل. وقد استمر هذا الأمر حتى استقالة أحمد الشقيري، ليتولى بعده رئاسة المنظمة بشكل مؤقت السيد يحيى حمودة حتى سنة ١٩٦٩.

سنة ١٩٦٩ فتحت المنظمة أبوابها لفصائل العمل الفلسطيني الفدائي، فدخلت إلى المنظمة الفصائل التي كانت تعمل خارج نطاق منظمة التحرير الفلسطينية بما فيها حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" بزعامة السيد ياسر عرفات الناطق الرسمي باسم حركة "فتح" آنذاك .

ولما كانت حركة فتح هي التي أطلقت الرصاصة الأولى في فلسطين وباشرت العمل الفدائي ضد الوجود الإسرائيلي المغتصب لفلسطين منذ سنة ١٩٤٨، فقد كان ذلك سببا لكي تصبح حركة "فتح" أكبر الفصائل حجما وأكثرها شعبية مما كان سببا في أن تحظى بأكثرية عددية في اللجنة التنفيذية

للمنظمة، وبالتالي تترأس المنظمة بتأييد من جميع الفصائل الفلسطينية الأخرى. وكان لها بالإضافة الى رئاسة اللجنة التنفيذية، عضوان آخران تولى أحدهما رئاسة الدائرة السياسية وتولى الآخر رئاسة دائرة التنظيم الشعبي في اللجنة التنفيذية.

أما الدائرة السياسية فقد تولى رئاستها منذ ١٩٦٩ الأخ خالد الحسن (أبو السعيد)، ثم تولاها بعده الأخ أبو يوسف النجار الذي استشهد مع زوجته في شهر مارس ١٩٧٣ بعملية الفردان والتي ذهب ضحيتها الشهداء الأخوة كمال عدوان، وكمال ناصر رحمهم الله جميعا.

فاروق القدومي (أبو اللطف) يتولى رئاسة الدائرة السياسية

بعد استشهاد الأخ أبو يوسف النجار سنة ١٩٧٣، تولى رئاسة الدائرة السياسية الأخ فاروق القدومي (أبو اللطف) واستمر ممارسا لهذه المسؤولية حتى تولت وزارة الخارجية في السلطة الوطنية الفلسطينية الكثير من مهمات الدائرة السياسية، وخصوصا ما يتعلق بالسلك الدبلوماسي، والتمثيل الفلسطيني لدى دول العالم والمنظمات الدولية،

وقد شهدت الفترة الواقعة بين سنة ١٩٧٣ وسنة ٢٠٠٣ أكبر وأهم الإنجازات الدبلوماسية الفلسطينية برئاسة الأخ فاروق القدومي (أبو اللطف) منها على سبيل المثال، انتشار ممثلات ومكاتب وسفارات المنظمة في مختلف بلدان العالم، ودخول منظمة التحرير الفلسطينية مراقبا في الأمم المتحدة سنة ١٩٧٤، واكتساب فلسطين العضوية الكاملة في جامعة الدول العربية، وإقرار القمة العربية في الرباط بان المنظمة هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني سنة ١٩٧٤، والفوز بنجاح قرار في الجمعية العامة للأمم المتحدة يدين الصهيونية باعتبارها شكلا من أشكال العنصرية والتمييز العنصري سنة ١٩٧٥، واكتساب مكانة نائب الرئيس في جميع مؤتمرات حركة عدم الانحياز وعلى المستويين وزراء الخارجية والقمة. كما شهدت هذه الفترة من العمل الدبلوماسي، محاولة انضمام دولة فلسطين الى كل من اتفاقيات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩، ومنظمة الصحة العالمية، ومنظمة اليونسكو سنة ١٩٨٩، وما رافق هذه المحاولات من مجابهات حادة مع كل من إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية على جميع المستويات السياسية والدبلوماسية، كما شهدت أول محاولة جادة للتوجه إلى محكمة العدل الدولية سنة ١٩٩٦.

إضافة إلى ذلك كان التمثيل الدبلوماسي الفلسطيني لدى دول العالم ولدى المنظمات الدولية والذي تكرس باعتراف أكثر من مئة دولة رسميا بدولة فلسطين بعد اعلان الاستقلال في الجزائر في نوفمبر ١٩٨٨، هو الرافعة الأكثر أهمية لمسيرة منظمة التحرير الفلسطينية عندما كانت تواجه مشكلة سياسية أو أي مشكلة دبلوماسية أخرى في تلك المرحلة الممتدة من الكفاح الفلسطيني.

خصوصية الدبلوماسي الفلسطيني وتميزه

بينما يتولى سفراء الدول مهام تمثيل رؤسائهم وحكوماتهم لدى الدول المتلقية، ويعملون فيها على تعزيز العلاقات القائمة بين بلدانهم والدول الأخرى، ويساهمون في حل المشاكل والقضايا التي قد تنشأ لسبب أو لآخر عن طريق قيامهم بالأدوار الدبلوماسية لتجنب أي عمل من شأنه تعريض العلاقات القائمة إلى أي اهتزاز أو تصدع، وبذل ما في وسعهم من جهد لتحقيق ذلك استناداً إلى قدراتهم العالية وكفاءاتهم الدبلوماسية البارزة، ويسهرون على مصالح رعاياهم في البلدان المعتمدين لديها، فإن سفراء فلسطين يجدون أنفسهم مجبرين على تحمل أعباء إضافية لتلك المهام التقليدية التي يتحملها سفراء الدول الآخرين، وذلك نظراً للواقع المختلف الذي يميز الواقع السياسي الفلسطيني وخضوع الأرض الفلسطينية إلى احتلال عسكري إسرائيلي استيطاني يعمل على أن يكون بديلاً عن الشعب الفلسطيني وكيانه السياسي والقانوني عن غيره من الدول المستقلة التي تعيش حياتها العادية في أمن واستقرار. وعندما نقول: احتلال عسكري استيطاني إجلائي يكون مفهوماً بأن ذلك يعني حقيقة ما هدفت إليه الحركة الصهيونية من إنشاء إسرائيل على أساس نظرية البديل (إسرائيل بديل لفلسطين واليهود بديل للشعب الفلسطيني)، والعمل بكل الوسائل والحروب بشتى أنواعها ضد الشعب الفلسطيني لتحقيق ذلك.

إذن في حين يكرس سفير الدولة أي دولة جهده وعمله الجاد والمستمر على تطوير وتمتين علاقات بلاده مع الدولة المعتمد لديها وحصر مهام عمله كسفير لبلاده مع رأس الدولة وحكومة الدولة المتلقية، والعمل مع وسائل الإعلام إن لزم الأمر وبما لا يتعارض مع قوانين الدولة المتلقية، يتحمل سفير فلسطين في نفس الدولة مسؤوليات كبيرة أخرى تتعلق بمجابهة التحديات الناشئة عن نشاطات الجهات المعادية لفلسطين على مختلف المستويات الرسمية والحزبية والشعبية في الدولة المعتمد لديها، والعمل الدؤوب على استمرار كسب تعاطف وتأييد القوى السياسية لحقوق شعبه والمحافظة على ذلك وتطويره بشكل دائم، وبطبيعة الحال يشكل هذا العمل النضالي عبئاً إضافياً أساسياً على كاهل سفير فلسطين أينما كان وفي أية دولة من دول العالم إضافة إلى مهامه التي صنفناها بالمهام التقليدية لسفراء دول العالم الأخرى. ومن هنا تتشكل المكانة الهامة لسفراء فلسطين في دول العالم المختلفة ودورهم البارز في مجالس السفراء العرب والأوساط الدبلوماسية الأخرى، كاجتماعات مجالس سفراء دول منظمة المؤتمر الإسلامي، ومجالس سفراء دول حركة عدم الانحياز على سبيل المثال.

الدبلوماسية الفلسطينية ودقة العمل مع المتناقضات وحساسيتها

الدبلوماسية الثنائية هي كما أسلفنا تتصل بالإجراءات والتدابير والعلاقات بين الدولة المصدر ودولة أخرى متلقية. أما من حيث طبيعة العمل الدبلوماسي الفلسطيني فإن هذا العمل يختلف من بلد إلى آخر، وقد يحدث نوعا من التشابه بين عدد من البلدان من حيث أساليب العمل المثمر، فهناك على سبيل المثال دول تتعاطف حكوماتها مع القضية الفلسطينية ولها مواقف تاريخية مرموقة في تأييد ودعم حقوق الشعب الفلسطيني ليس على المستوى الثنائي فقط بل وفي المحافل الدولية أيضا، وهذا يتطلب نوعا معينا من العمل الدبلوماسي خصوصا إذا كان الشعب في هذا البلد، أو إذا كان عدد هام من قواه السياسية الحزبية والنقابية والشعبية على علاقة سلبية مع نظام الحكم هناك، والحكم في نفس الوقت ملتزم بعلاقة جيدة مع نضال الشعب الفلسطيني ومؤيدا لحقوقه الوطنية. العمل الدبلوماسي في هذه الحالة يدخل في حقل من الألغام السياسية مما يفرض على الدبلوماسي الفلسطيني الحيلة والحذر، كما يفرض عليه الدقة العالية في حسابات كثيرا ما يجد نفسه أمامها في وضع بالغ الحساسية، بين الجماهير وقوى سياسية مؤيدة له ولشعبه، والنظام المتعاطف تاريخيا مع قضية وطنه أيضا في نفس الوقت، ويشدد الوضع تعقيدا إذا تصاعدت المواجهات في ذلك البلد بين النظام وأجهزته من جهة والشعب وقواه الوطنية من جهة أخرى على خلفية القضايا الداخلية، مما يولد مناخا سياسيا معقدا يتطلب استعمال ما وهبه الله للدبلوماسي من ذكاء، وما امتلكه من خبرة دبلوماسية وحنكة فائقة كي يحافظ على علاقة بلاده الايجابية مع طرفي النزاع على حد سواء، وفي حالة إخفاقه في ذلك فإنه قد يضع نفسه في موقف تعلن فيه الدولة المتلقية عن عدم رغبتها في بقائه كدبلوماسي لديها كما حدث لعدد من سفرائنا في عدد من الدول في مراحل سابقة ومن ضمنها الهند واليمن والسودان على سبيل المثال.

أشكال ونماذج التمثيل الدبلوماسي الفلسطيني وتطوره

يمكن القول بان التمثيل الدبلوماسي الفلسطيني اختلف وتنوع وفق مراحل النضال التي خاضتها منظمة التحرير الفلسطينية. ففي السنوات الأولى من إنشاء المنظمة كان التمثيل الدبلوماسي الفلسطيني محصورا بالدول العربية وعدد قليل من الدول الصديقة متخذا شكل اعتماد مكاتب للمنظمة لدى عواصم الدول المذكورة تقوم بالعمل الإعلامي فيها خدمة لفلسطين دون أي صفة دبلوماسية لهذه المكاتب، وكان يطلق اسم (مكتب منظمة التحرير الفلسطينية) على المكتب التمثيلي للمنظمة. ولم تكن هذه المكاتب تتمتع بأي نوع من الحصانة الدبلوماسية، أو الامتيازات التي تتمتع بها السفارات والقنصليات التابعة للدول المرسلة.

بل كان الهم كل الهم لدى المبعوثين الفلسطينيين للدول المتلقية في تلك المرحلة المبكرة هو أن يقدم المبعوث أقصى ما يمكن له أن يقدمه من اجل بلده وقضية شعبه. وكان الإعلام وما يتصل به هو ما يتمحور حوله الجهد والعمل المتواصل، ولم يكن يفكر أحد في تلك المرحلة بالعمل الدبلوماسي وحصانته وامتيازاته بقدر ما كان يفكر المبعوث الفلسطيني في التعريف بجذور قضية فلسطين وتطورها التاريخي ومعاناة الشعب الفلسطيني التي ترتبت على إفرازات الحرب العالمية الأولى وبشكل محدد اتفاقية سيكس بيكو، ووعد بلفور والهجرة اليهودية إلى فلسطين ودور الانتداب البريطاني في تنفيذ قرارات مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠، وإصرار الشعب العربي الفلسطيني على النضال من اجل استعادة حقوقه في وطنه والعودة الى أرضه وممتلكاته التي هجر منها بالقوة والإرهاب الذي اعتمد ارتكاب المجازر بحق الشعب الفلسطيني كما حدث في مذبحة دير ياسين عام ١٩٤٨ لتفريغ أرض فلسطين من مواطنيها الفلسطينيين تمهيدا لتوطين المهاجرين المستجلين اليهود من مختلف أنحاء العالم مكانهم فيها. كما كان من مهمات المندوب أو المبعوث الفلسطيني حشد التأييد والدعم لكفاح الشعب الفلسطيني سواء أكان على المستوى الرسمي الحكومي أو على المستوى الشعبي من خلال العمل مع الأحزاب والنقابات والمؤسسات المدنية لدعم كفاح الشعب الفلسطيني في البلد المعتمد لديه، فنشأت عن ذلك لجان التضامن مع الشعب الفلسطيني في العديد من البلدان العربية وغير العربية مثل الجمعية المغربية لمساندة كفاح الشعب الفلسطيني في المملكة المغربية، وجمعية دعم أسر شهداء ومجاهدي فلسطين بالمملكة العربية السعودية وغيرها من البلدان العربية، وجمعية أصدقاء فلسطين في لندن، وجمعية أصدقاء فلسطين في أيرلندا في دول أوروبا الغربية على سبيل المثال، أما في دول أوروبا الشرقية في ذلك الحين، فكانت النشاطات تتركز على تعزيز العلاقات مع الأحزاب الشيوعية والنقابات والمؤسسات الإنسانية وجلب دعمها وتأييدها إلى الشعب الفلسطيني وحقوقه الوطنية في وطنه من خلال إقامة نشاطات مستمرة، وإحياء المناسبات الوطنية وإشراك هذه الأحزاب والمؤسسات فيها.

العمل الدبلوماسي الفلسطيني في دول أوروبا الغربية

نظرا لصعوبة العمل الدبلوماسي التمثيلي الفلسطيني في الدول الأوروبية الغربية آنذاك، لجأت المنظمة وبدعم من الحكومة الجزائرية إلى الاتفاق مع جامعة الدول العربية لتعيين كفاءات فلسطينية لدى مكاتب الجامعة في الدول الأوروبية يحملون صفة المندوبين الإعلاميين ليعملوا من خلال مواقعهم ضمن مكاتب جامعة الدول العربية في عواصم تلك البلدان، ويكرسوا عملهم لفلسطين إعلاميا وسياسيا واستقطابا. علما بان وضع المنظمة لدى جامعة الدول العربية آنذاك

كان من الناحية القانونية هو وضع العضو المراقب، واستمر هذا الوضع إلى أن اتخذ مؤتمر القمة العربي السابع في الرباط عام ١٩٧٤ قراره باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني فاكتملت فلسطين العضوية الكاملة في جامعة الدول العربية، وتبع ذلك اكتسابها العضوية الكاملة في حركة عدم الانحياز، ومنظمة المؤتمر الإسلامي الذي أصبح اسمها فيما بعد منظمة التعاون الإسلامي، وبالتالي اتسع نطاق التمثيل الفلسطيني لدى عدد آخر من دول العالم النامي مما أتاح للمنظمة افتتاح مكاتب لها في عواصم تلك البلدان، وكان هذا التطور المترتب على التصعيد في العمل الكفاحي الفلسطيني، والتضحيات الجسام التي يقدمها الشعب الفلسطيني من خلال مسيرته النضالية وهو ما كان عاملا أساسيا في فتح أبواب الأمم المتحدة للمنظمة لتصبح عضوا مراقبا فيها باعتبارها حركة تحرر وطني وذلك في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٤.

في ضوء ذلك رفعت العديد من الدول العربية مستوى التمثيل الفلسطيني إلى مستوى دبلوماسي أعلى من مستوى مكتب ومنحتها بعض الحصانات الدبلوماسية، وقبلت بعض الدول الأوروبية استقبال ممثل لمنظمة التحرير الفلسطينية فيها ومن ضمنها على سبيل المثال، فرنسا وبلجيكا واسبانيا والسويد واليونان والمملكة المتحدة والنمسا والبرتغال.

إعلان قيام الدولة عام ١٩٨٨ يفتح آفاقا جديدة امام التمثيل الفلسطيني في العالم

بعد إعلان قيام الدولة افتتحت فلسطين سفارات لها في العواصم العربية، كما قررت الدول الأوروبية بعد ذلك اعتماد التمثيل الفلسطيني فيها على مستوى مفوضية، وممثل فلسطين مفوضا عاما لفلسطين في العاصمة يقدم أوراق اعتماده إلى وزير الخارجية، وقدم عدد من الدول الأوروبية بعض الامتيازات الدبلوماسية الى المفوضيات الفلسطينية. والمعروف أن المفوضية في الترتيب الدبلوماسي تأتي كدرجة أدنى بشكل مباشر من درجة السفارة. وكان الأوروبيون يقولون إننا تعاملنا مع فلسطين بهذه الطريقة انتظارا للمستقبل عندما نتعامل معها كدولة سترفع التمثيل الى مستوى سفارة.

الرئيس ياسر عرفات يقرر إنشاء المعهد الدبلوماسي

إدراكا منه لأهمية التمثيل الدبلوماسي وضرورة أن يرتقى هذا القطاع الهام إلى أقصى درجة من الكفاءة والأهلية قرر الرئيس المرحوم الأخ أبو عمار تأسيس المعهد الدبلوماسي الفلسطيني فأصدر بتاريخ ٤ كانون الثاني/ يناير سنة ٢٠٠٤ قرارا يقضي بإنشاء المعهد وطلب مني البدء في العمل على

تأسيسه فوراً في إطار وزارة الشؤون الخارجية. ولقد جاء هذا القرار بعد أن أدرك الرئيس عرفات ومن خلال التجربة الدبلوماسية الطويلة هذه الخطوة بالغة الأهمية، وفي ضوء نجاحات وإخفاقات العمل الدبلوماسي الفلسطيني على مدى الأربعين سنة الماضية، والإدراك لأهمية ضرورة وجود معهد دبلوماسي يقوم بإعداد وتكوين المرشحين للعمل في السلك الدبلوماسي، وتأهيل العاملين في السلك ممن يحتاجون إلى مثل هذا التكوين. ولكن لسوء طالع الدبلوماسية الفلسطينية قضت مشيئة الله عز وجل أن يستشهد الرئيس عرفات قبل أن يرى وثائق المعهد الدبلوماسي التي وصلت إلى مكتبه كاملة وهو على فراش المرض قبل أن ينقل إلى باريس بأيام، وهي المرحلة التي منعه الأطباء فيها من التعامل مع الورق منعاً باتاً. ومع وفاته والتغيير الحاد في الوضع السياسي والإداري الذي ساد الوسط الرسمي الفلسطيني بعد وفاته على مستوى الحكومة ولا سيما في وزارة الخارجية التي عين على رأسها وزير كان أول خطوة اتخذها في شأن الوزارة هي إلغاء المعهد الدبلوماسي من هيكلية وزارة الشؤون الخارجية وإحالة رئيسه المعين بقرار رئاسي إلى التقاعد معلناً أننا لسنا بحاجة إلى معهد دبلوماسي، فهذه خطوة أكبر منا بكثير، كما قال في تصريح صحافي آنذاك.

واقع الدبلوماسية الفلسطينية

مرحلة شهداء العمل الدبلوماسي

عندما نتكلم عن واقع الدبلوماسية الفلسطينية الآن لا نلغي بأي شكل من الأشكال تاريخ العمل الدبلوماسي الفلسطيني ودور الدبلوماسية الفلسطينية الأساسي والهام في النضال الفلسطيني وأثره البالغ في المحافظة على منظمة التحرير الفلسطينية وإبقاء شعلة النضال الفلسطيني متأججة وحية خلال أصعب المراحل والأزمات السياسية التي مرت بها المنظمة والعمل الفلسطيني عموماً، وما قدمه السلك الدبلوماسي الفلسطيني على مستوى السفراء من تضحيات ذهب معها العديد من السفراء وممثلي فلسطين شهداء في الساحتين الأوروبية والعربية، منهم وائل زعيتر الذي استشهد اثر إطلاق النار عليه في روما بتاريخ ١٧ تشرين أول/أكتوبر ١٩٧٢، ومحمود الهمشري الذي استشهد في باريس بتاريخ ٩ كانون الثاني/يناير ١٩٧٣، وسعيد حمامي الذي استشهد بإطلاق النار عليه في مكتبه في لندن بتاريخ ٤ كانون الثاني/يناير ١٩٧٨، وعز الدين القلق الذي استشهد في باريس بإطلاق النار عليه بتاريخ ٣ آب/أغسطس ١٩٧٨، ونعيم خضر الذي استشهد بإطلاق النار عليه في بروكسيل بتاريخ ١ حزيران / يونيو ١٩٨١، وعلي ناصر ياسين في الكويت، ود. عصام صرطاوي في لشبونة سنة ١٩٨٣ ناهيك عن محاولات الاغتيال التي أحبطت في أماكن أخرى، والتهديدات بالقتل

لسفراء فلسطينيين آخرين بعد ذلك مما وثقته الحكومات ودوائر البوليس في بريطانيا وغيرها من الدول، وظهر في الوثائق البريطانية التي أفرج عنها مؤخرا، وهي التي تحتوي على معلومات تتعلق بأحداث الثلاثين سنة الماضية، وغيرها من الدول الأوروبية. هؤلاء هم الكوكبة المتقدمة من الدبلوماسيين الفلسطينيين الذين قضوا شهداء برصاص ومتفجرات الغدر الصهيوني والموساد الإسرائيلي وعملائه بينما كانوا في أماكن أعمالهم الدبلوماسية في العواصم الأوروبية عندما كان الدبلوماسي الفلسطيني يتوجه عند تعيينه إلى مهامه الجديدة وهو يعلم أنه قد لا يعود حيا إلى أهله ووطنه.

هذه الكوكبة من الشهداء الدبلوماسيين لحقت بها كوكبة أخرى من الدبلوماسيين الذين جاءتهم المنية وتوفاهم الله وهم على رأس أعمالهم فاستشهدوا أمثال المرحوم السفير حاتم الحسني الذي توفي في واشنطن، والمرحوم عصام كامل السالم الذي توفي في مدريد، والمرحوم يوسف علان الذي توفي في دبلن، وإبراهيم الخطيب في بلغراد، وفيصل عويضة في فيينا، وجورج سلامة في نيكاراغوا، وسعيد العباسي في السنغال، وعلي حليلة في جنوب إفريقيا، إضافة إلى الذين توفاهم الله بعد التقاعد أمثال المرحوم جمال الصوارني وشفيق الحوت، وعبد اللطيف أبو حجلة (أبو جعفر)، وسعيد المزين، وصبحي أبو كرش، وفتحي عبد الحميد، وفؤاد ياسين وأحمد عبد الرازق، وخالد الشيخ، وزهدي الطرزي، وسعدات حسن، ومروان طهبوب، ويوسف رجب، وزيد أبو العلا (هشام) وإبراهيم الطري، رحمهم الله جميعا. هؤلاء السفراء قضوا بعد سنوات طويلة من البذل والعتاء قدموا خلالها كل ما لديهم من جهد وخبرة وتفان في معركة الدبلوماسية الفلسطينية حول العالم.

العمل الفلسطيني ينشط على المستوى الثنائي

من ناحية أخرى نشط العمل الدبلوماسي الفلسطيني على المستوى الثنائي وأثبت وجوده في أكثر من تسعين دولة إضافة إلى النجاحات المميزة التي حققتها الدبلوماسية الفلسطينية على مستوى الدبلوماسية المتعددة في المحافل الدولية المختلفة عربية وإسلامية وعدم انحياز وصولا إلى العالم كله ممثلا في الأمم المتحدة، مما شمل تعريف وتحديد الحقوق الوطنية الفلسطينية على مستوى العالم بدءا من حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وحقه في إنشاء دولته الوطنية المستقلة على ترابه الوطني، وحقه في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وتحرير أرضه والعودة إليها وفقا لأحكام القانون الدولي والقانون الإنساني الدولي وحقوق الإنسان.

وعندما نلقي نظرة سريعة على وضع الدبلوماسية الفلسطينية في هذه المرحلة ندرك بسرعة مواطن الضعف والخلل فيها، وإذا كان هناك تأثير متبادل بين السياسة بكل جوانبها والدبلوماسية بكل

مظاهرها، نجد أن الوهن الذي أصاب السياسة الفلسطينية منذ سنوات بسبب التعنت الإسرائيلي وتوقف المفاوضات ومكر السياسة الدولية وتراجع الدعم العربي قد انعكس سلباً على الدبلوماسية الفلسطينية، ثم إن هذا الوهن لهذه السياسة على المستويات المختلفة التي شهدتها الساحة الفلسطينية، سواء على الصعيد الخارجي وبالتحديد فشل منهج المفاوضات مع إسرائيل، وعلى الصعيد الداخلي من الانقسام الوطني بين غزة والضفة، وفشل التوصل إلى إعادة اللحمة للوطن وتوحيده حتى الآن، والتخوف من أن يصبح الانقسام انفصالياً في المستقبل لا سمح الله، إلى سوء الإدارة وظاهرة الفساد الإداري والمالي، قد ترك أعظم الأثر في إضعاف نشاط تلك الدبلوماسية، كما لو تعمقنا في البحث عن الخلل الدبلوماسي من حيث هو لوجدنا أنه يكمن بالدرجة الأولى في ثلاث عناصر تعتبر الركائز الأساسية لنجاح كل عمل دبلوماسي فلسطيني، وهي العنصر البشري، وعنصر الوزارة، وعنصر الحرية والاستقلال الوطني في اتخاذ القرار.

١ - فالسلك الدبلوماسي الفلسطيني يفتقر إلى حد كبير إلى العنصر البشري الذي يتمتع بالموهبة الدبلوماسية. وهذه الموهبة لا تكتسب بالشهادة الجامعية أو المنبت أو عن طريق المباراة أو الانتخاب، بل تولد مع الإنسان وتصلق بالعلم والممارسة والإطلاع والتجربة الغنية. ونلاحظ أن معالم الخلل الدبلوماسي التي ظهرت في البداية لم يطرأ عليها أي تغيير بعد أربعين سنة من بدء العمل الدبلوماسي الفلسطيني، ويمكن إجمال هذه المعالم بأمر أربعة هي:

أ - تراجع المعايير في اختيار الدبلوماسي الفلسطيني، ففي غالب الحالات لا تعتمد طريقة الانتقاء والكفاءة والإعداد لاختيار رجال السلك الدبلوماسي، بل شاب الاختيار اعتبارات غير مهنية لا علاقة لها بالكفاءة أو المهنية أو التخصص .

ب - الضعف الظاهر في المستوى اللغوي والثقافي، فهناك عدد من دبلوماسيينا لا يتقن لغة أجنبية واحدة، ومنهم من كان لا يجيد حتى اللغة العربية الصحيحة، ومن الصعب على الدبلوماسي الفلسطيني القيام بمهمته على الوجه الأكمل أو المقبول إذا كان يجهل لغة الدولة المعتمد لديها. والمثير للدهشة أن انخفاض المستوى الثقافي لدى عدد من الممثلين الدبلوماسيين يكاد يكون ظاهرة ملموسة ناهيك عن التكوين السياسي والدبلوماسي المطلوب.

ج - الإهمال في تحسين المستوى الاجتماعي، فالدبلوماسي يجد صعوبة في الاندماج في المجتمع الأجنبي، وذلك بسبب البيئة التي ينتمي إليها، أو الطريقة التي يختار بها، أو الضعف اللغوي والثقافي الذي يعانيه، أو الزوجة العاجزة عن مساعدته في أداء رسالته لأنها ليست في الأصل مؤهلة أو مهياًة للعمل الدبلوماسي.

د_الشعور الدائم بعدم الاستقرار والاطمئنان نظرا للتقلبات السياسية وارتباطه بمن عينه من المتنفذين وارتباط مصيره بوجودهم مما لا يتيح له فرصة التفكير والإبداع والمبادرة.

٢- ما زالت وزارة الشؤون الخارجية جهازا ضعيفا أو عاجزا عن التصدي للمشكلات الخارجية أو حتى لعملية التنسيق والمتابعة لكثير من القضايا الهامة، ولا سيما ما يتعلق منها بالعمل مع المنظمات الدولية، أو حتى على المستوى الثنائي كما هو واقع الآن مع العديد من الدول الإفريقية، حيث نلاحظ التراجع الواضح لدول افريقية عن التأييد والدعم السياسي لقضية فلسطين مقارنة بالماضي القريب، وتوجه عدد من هذه الدول نحو إسرائيل وتعزيز العلاقات معها، ناهيك عن التراجع الملموس في مواقف عدد من الدول الأوروبية ممن اعتبروا في الماضي القريب ضمن الدول المتعاطفة مع الجانب الفلسطيني.

٣_ الحرية المشروخة في رسم السياسات الوطنية في مجال التطوير والتنمية في حقل الدبلوماسية، إذ كان القرار في إلغاء إنشاء المعهد الدبلوماسي في وزارة الشؤون الخارجية وشطبه من هيكلية وزارة الشؤون الخارجية سنة ٢٠٠٥ غير مفهومة، وقد تكون ذات أبعاد خطيرة على أهم خطوة نحو تأهيل وتكوين سلك دبلوماسي وطني فلسطيني سليم وقادر على تحمل مسؤولياته الدبلوماسية.

الدبلوماسية لا تصنع سياسة

الدبلوماسية لا ترسم سياسات، ولكنها تشكل جزءا له أهميته في منظومة العمل السياسي المتكامل في الدولة. فعندما تكون الدولة تسير صعودا في المجالات السياسية والاقتصادية وغيرها، ترتفع وتيرة العمل الدبلوماسي وتجد الدبلوماسية لنفسها المجالات الرحيبة للعمل والإبداع.

وعندما تكون الدولة في حالة هبوط سياسي أو في أكثر من مجال، أو في حالة تقهقر، أو ارتباك، أو تخبط سياسي، لا تستطيع الدبلوماسية أن تجعل من واقع الدولة المتدهور هذا فردوسا أمام العالم الآخر. وللتدليل على ذلك نأخذ الحالة الفلسطينية نفسها مثلا واضحا على ما نقول. كما أنه في الحالة الفلسطينية يكتسي العمل الكفاحي وتضحيات الشعب من أجل حقوقه عاملا حاسما في تعزيز العمل الدبلوماسي لاستقطاب الرأي العام وتأييده ودعمه لنضال الشعب الفلسطيني أو وقوف المجتمع الدولي إلى جانبه من ناحية، واستنهاض قوى التحرر في العالم لتأييد ودعم وتعزيز الكفاح الفلسطيني من ناحية أخرى.

كفاح الشعب ووحده وتضحياته تشكل الأساس لكل عمل دبلوماسي

في الماضي عندما تصاعد كفاح الشعب الفلسطيني مثلا ضد الانتداب البريطاني، والهجرة اليهودية إلى فلسطين حتى ١٩٤٧ وبدأ العالم يشعر بتضحيات الشعب الفلسطيني وإصراره على الكفاح، اعترف المجتمع الدولي من خلال الجمعية العامة للأمم المتحدة بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وإقامة دولته الفلسطينية المستقلة على أرض فلسطين عبر قرارها المعنون (خطة التقسيم) رقم ١٨١ في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٤٧، ولكن عندما توقف الشعب الفلسطيني عن منهجه النضالي بعد ذلك من سنة ١٩٤٨ إلى ١٩٦٤، بسبب الهجرة وعوامل التشتت، تخلى المجتمع الدولي عنه وحذف المسألة الفلسطينية كقضية سياسية من جدول أعمال الجمعية العامة، وباشر بدراستها كقضية لاجئين عام ١٩٥٢. ولكن عندما استأنف شعبنا كفاحه مع نشوء منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤، وبدء الكفاح المسلح الذي أطلقته حركة فتح في شهر كانون الثاني/ يناير ١٩٦٥ عاد المجتمع الدولي ليؤكد حقوق شعبنا في تقرير مصيره وحقه في الدولة الفلسطينية المستقلة ذات السيادة، واكتسبت فلسطين عضويتها الكاملة في جامعة الدول العربية، كما تبوأ مكانة نائب الرئيس في كل من حركة عدم الانحياز ومنظمة المؤتمر الإسلامي على جميع المستويات، ومراقب دائم في منظمة الوحدة الإفريقية التي أصبحت الاتحاد الإفريقي فيما بعد، وكأول سابقة في تاريخها فتحت الأمم المتحدة أبوابها لمنظمة التحرير الفلسطينية كي تتمتع بعضوية المراقب فيها وتأخذ مكانها كطرف فاعل ومباشر في المجتمع الدولي بصفتها حركة تحرير وطني تناضل على جميع المستويات بما فيها المستويين السياسي والدبلوماسي إلى جانب الكفاح المسلح الذي بدأته حركة فتح عام ١٩٦٥، وكان للبدء في الكفاح المسلح مع العدو الصهيوني الأثر الواضح في ولوج الدبلوماسية الفلسطينية مختلف أنحاء العالم لتستقطب قوى التحرر العالمية والقوى المحبة للسلام والجماهير التقدمية المناضلة في كل من أوروبا وآسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، وقد تعاضم هذا التأييد والاستقطاب، بعد الانتصار المشرف في معركة الكرامة في آذار/ مارس سنة ١٩٦٨ حتى أصبح الشعب الفلسطيني وكوفيته الفلسطينية المميّزة رمزا للمناضلين في العالم كله، وقدوة يحتذى بها عند جميع الشعوب وحركات التحرير العالمية حيث تسلمت فلسطين راية التحرر العالمي بعد انتصار الثورة الفيتنامية عام ١٩٧٥. هكذا وبهذه الطريقة الواضحة كان المجتمع الدولي وقوى التحرر في العالم تتكامل مع شعبنا في حالات القوة والإصرار على انتزاع الحقوق، وترجمة ذلك بمنهج نضالي وكفاحي شعبي يقدم التضحيات من أجل حياة كريمة في وطن حر ومستقل، ويتعدى عنا كما يتعدى عنا قوى التحرر العالمية في حالات الضعف.

الواقع الفلسطيني الآن والعمل الدبلوماسي

إذا نظرنا إلى أنفسنا والى واقعنا السياسي اليوم، نجد أن فرقا شاسعا بين مرحلة البدايات وما تلاها من نجاحات سياسية ودبلوماسية ارتبطت بالمنهج الكفاحي المنظم من ناحية، والواقع الراهن المرتبط باتفاقات أوسلو، وخارطة الطريق الأميركية، ومحاولات إسقاط حقنا في المقاومة، واعتماد منهج المفاوضات غير المجدية منذ عشرين سنة مع إسرائيل قد قادنا إلى ما يلي :

١- انقسم الوطن وخسرنا بذلك أهم عنصر من عناصر القوة والمنعة أمام العالم هو وحدة الوطن وتماسكه، ومع ذلك نحن لم نحرك ساكنا.

٢- الاقتحامات اليهودية اليومية المستمرة والمتكاثرة لباحات المسجد الأقصى، والتهديد بتقسيمه على طريق الاستيلاء عليه بحجة إقامة الهيكل اليهودي المزعوم مكانه دون أن نعمل شيئا لوقف هذا العدوان.

٣- فقدنا مساحات من الأرض باستيلاء إسرائيل عليها من شمال الوطن إلى جنوبه، ثم زرعت فيها مستوطناتها اليهودية، وما زالت تسرق الأرض كل يوم، ونحن عاجزون عن وقف هذه الجريمة.

٤- ما تفعله إسرائيل في القدس ومحاولات تهويدها وما زال التهويد مستمرا لباقي أجزاء الضفة الفلسطينية.

٥- وزيرة القضاء الإسرائيلية أيليت شاكيد تدعو إلى قتل الأطفال الفلسطينيين وتقول " إن الأطفال الفلسطينيين ما هم إلا ثعابين صغيرة يجب قتلهم قبل أن يصبحوا ثعابين كبيرة ". هذه دعوة صريحة وواضحة وموثقة لحرب إبادة جماعية ضد الشعب الفلسطيني أطلقتها وزيرة ومسؤولة في الحكومة الإسرائيلية ومع ذلك نحن لم نحرك ساكنا.

٦- المستوطنون اليهود يقتلون أطفالنا ويحرقونهم أحياء كما حدث مع الطفل محمد أبو خضير في القدس، وذلك في حرب إبادة جماعية.

٧- المستوطنون اليهود وبحراسة الجيش الإسرائيلي يحرقون العائلات الفلسطينية أحياء كما حدث مع عائلة دوابشة بتاريخ ٢٠١٥/٧/٣١، ونحن نعجز عن عمل أي شئ بسبب الضعف والوهن الذي ارتبط بالمنهج السياسي الكامل الذي ثبت فشله مع إسرائيل.

٨- فتحت لنا أبواب المحكمة الجنائية الدولية لكي نستعين بها على جرائم الإسرائيليين بحق شعبنا وأرضنا ولكننا مع الأسف لم نطلب حتى الآن فتح تحقيق بهذه الجرائم من المدعي العام للمحكمة المذكورة، ويتعين علينا أن نتحرك من أجل تفعيل دور المحكمة الجنائية الدولية للخروج عن صمتها.

٩- الإحباط بدأ يعم النفوس عند شعبنا ونحن ما زلنا نسير في سياسة الترقب والتعامل مع الإعلام المحلي.

بعد هذا كله، وما يظهره من ضعف، كيف يمكن أن نحظى باحترام العالم الذي لا يحترم إلا القوي، ولا يتعامل إلا مع القوي، ولا يقيم وزنا إلا للقوي.

كما قلنا سابقا فإن الدبلوماسية لا تصنع سياسة، وبحكم كونها جزءا من المنظومة السياسية للدولة، ودورها مكمل لسياسة وإستراتيجية الدولة، لا تخرج عنها ولا تتعارض معها، فإذا تقدمت الدولة، تتقدم الدبلوماسية، وإذا تقهقرت الدولة، تتقهقر الدبلوماسية، وهي لا تستطيع أن تعمل بنجاح وشفافية وطنية وإبداع، إلا عندما تتسلح بإرادة الشعب المكافح وترتكز إلى نجاحاته وإنجازاته وتضحياته على الأرض من أجل حقوقه الوطنية وسيادته في دولته المستقلة، أما إذا كان العكس هو السائد فذلك ينسحب على العمل الدبلوماسي.